مقاومة الإمام علي (ع) الرائعة في غزوة حنين

<"xml encoding="UTF-8?>

ألقى فتح مكّة الرعب في قلوب المشركين ، والذعر والفزع في نفوسهم ؛ فتشاورت قبيلتا الطائف المهمّتان هوازن وثقيف مع بعض القبائل الأُخرى ، فعزمتا على المسارعة إلى مواجهة جيش الإسلام قبل أن يقبل عليهم ، وجمعتا جيشاً ضخماً بقيادة شابّ باسل شجاع يدعى : مالك بن عوف النصري ، وسار الجيش نحو المسلمين (1) .

وبادر النبيّ (صلى الله عليه وآله) إلى مواجهتهم على رأس جيش عظيم يتألّف من اثني عشر ألفاً ؛ عشرة آلاف من يثرب ، وألفين من المسلمين الجدد ، وبلغت عظمة الجيش درجةً جعلت البعض يصاب بغرور زائف حتى قال : لا نُغلب اليوم من قلّة (2) .

وأمر مالك جيشه بالاختباء خلف الأحجار والصخور وشعاب الجبال والنقاط المرتفعة في آخر الوادي الذي كان ممرّاً إلى منطقة حنين . ولمّا وصل الجيش الإسلامي هناك رُشق بالسهام والحجارة ، فمُني بالهزيمة والانكسار ، وحدث ما حدث ، وفرّ كثير من جيش رسول الله (صلى الله عليه وآله) (3) ، حتى قال أبو سفيان مستهزئاً : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر (4) .

وفي ساعة العسرة هذه لم يبقَ مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلاّ قليل ؛ قرابة عشرة ، فاستماتوا في الدفاع عنه ، وفيهم أمير المؤمنين (عليه السلام) فكان لا يفتأ يحوم حوله مدافعاً ، وهزم من كان يريد قتل النبيّ (صلى الله عليه وآله) ، وأجبرهم على الفرار (5) .

وصاح النبيّ (صلى الله عليه وآله) بصوت عال في خضمّ تلك الشدائد والنوازل قائلا : يا أنصار الله وأنصار رسوله ، أنا عبد الله ورسوله ! ثمّ ساق بغلته نحو العدوّ ومعه عدد من الصحابة ، وأمر عمّه العبّاس أن ينادي المسلمين بصوته الجهوريّ ويدعوهم إلى نصرته . وهكذا انتظم أمر الجيش مرّة أُخرى (6) .

إنّ ثبات عليّ (عليه السلام) وقتاله بلا هوادة في هذه المعركة لافتان للنظر أيضاً ، فقد قتل أربعين من هوازن (7) ، وفيهم أبو جرول ؛ وهو أحد شجعانهم ، وكان هلاكه بداية لانهيار جيشهم (8) .

ولاحق النبيّ (صلى الله عليه وآله) الفارّين ، وحاصر قلعتهم بالطائف . وفي هذا الحصار اشتبك الإمام (عليه السلام) مع نافع بن غيلان فقتله ، فولّى جمع من المشركين مدبرين ، وأسلم آخرون (9) .

يضاف إلى هذا أنّ الإمام (عليه السلام) كلّف عند الحصار بكسر الأصنام التي كانت حول الطائف ، وقد أنجز هذه المهمّة بأحسن ما يكون (10) .

قال الشيخ المفيد رضوان الله عليه في حضور الإمام (عليه السلام) هذه الغزوة : " فانظر الآن إلى مناقب أمير المؤمنين (عليه السلام) في هذه الغزاة وتأملّها وفكّر في معانيها تجده قد تولّى كلّ فضل كان فيها ، واختصّ من ذلك بما لم يشركه فيه أحد من الأُمّة " (11) .

ويتسنّى لنا الآن – بناءً على ما ذكرنا وما جاء في الوقائع التاريخيّة – أن نسجّل دور الإمام (عليه السلام) في النقاط الآتية :

1 – حمله راية المهاجرين .

2 – حضوره المهيب في احتدام القتال وهجوم العدوّ بلا هوادة ، ودفعه الخطر

عن النبيّ (صلى الله عليه وآله) في أحرج اللحظات التي فرّ فيها الكثيرون .

3 – قتلُه أبا جرول والذي استتبع انهيار جيش هوازن .

4 – قتله أربعين من مقاتلي هوازن .

5 – قيادته لكتيبة كانت قد تعبّأت من أجل إزالة الأصنام .

6 – مبارزة شهاب – من قبيلة خثعم – الذي لم يجرأ أحد من المسلمين على

مبارزته ، فهبّ الإمام (عليه السلام) إليه وقضى عليه .

7 – قتله نافعاً ، الذي أدّى إلى إسلام الكثيرين .

1 – تاريخ اليعقوبي : بلغ رسول الله وهو بمكّة أنّ هوازن قد جمعت بحنين جمعاً كثيراً ، ورئيسهم مالك بن عوف النصري ، ومعهم دريد بن الصمّة من بني جشم ؛ شيخ كبير يتبرّكون برأيه ، وساق مالك مع هوازن أموالهم وحرمهم . فخرج إليهم رسول الله في جيش عظيم عدّتهم اثنا عشر ألفاً ؛ عشرة آلاف أصحابه الذين فتح بهم مكّة ، وألفان من أهل مكّة ممّن أسلم طوعاً وكرهاً ، وأخذ من صفوان بن أُميّة مائة درع وقال : " عارية مضمونة " . فأعجبت المسلمين كثرتُهم ، وقال بعضهم : ما نؤتى من قلّة . فكره رسول الله ذلك من قولهم .

وكانت هوازن قد كمنت في الوادي ، فخرجوا على المسلمين ؛ وكان يوماً عظيم الخطب ، وانهزم المسلمون عن رسول الله ، حتى بقي في عشرة من بني هاشم ، وقيل تسعة ، وهم : عليّ بن أبي طالب ، والعبّاس بن عبد المطّلب ، وأبو سفيان بن الحارث ، ونوفل بن الحارث ، وربيعة بن الحارث ، وعتبة ومعتّب ابنا أبي لهب ، والفضل بن العبّاس ، وعبد الله بن الزبير بن عبد المطّلب ، وقيل :

أيمن بن أُمّ أيمن . قال الله عزّ وجلّ : (وَيَوْمَ حُنَيْن إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ

الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا) (12) (13) .

2 – تاريخ الإسلام عن الواقديّ : سار رسول الله (صلى الله عليه وآله) من مكّة لستٍّ خلونَ من شوّال في اثني عشر ألفاً ، فقال أبو بكر : لا نُغلب اليوم من قلّة . فانتهوا إلى حُنين لعشر خلونَ من شوّال . وأمر النبيّ (صلى الله عليه وآله) أصحابه بالتعبئة ، ووضع الألوية والرايات في أهلها ، وركب بغلته ، ولبس دِرعين والمِغفر والبيضة . فاستقبلهم من هوازن شيءٌ لم يرَوا مثله من السواد والكثرة ، وذلك في غبش الصبح . وخرجت الكتائب من مضيق الوادي وشعبه ، فحملوا حملةً واحدة ، فانكشفت خيل بني سليم مُولّيةً ، وتبعهم أهل مكّة ، وتبعهم الناس (14) .

3 – السيرة النبويّة عن جابر بن عبد الله : لمّا استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حَطُوط (15) ، إنّما ننحدر فيه انحداراً ، – قال : – وفي عَماية الصبح (16) . وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي ، فكمنوا لنا في شِعابه وأحنائه ومضايقه ، وقد اجمعوا وتهيّؤوا وأعدّوا . فوالله ما راعنا ونحن منحطّون إلاّ الكتائب قد شدُّوا علينا شدّة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد ، وانحاز رسول الله (صلى الله عليه وآله) ذات اليمين ، ثمّ قال : أين ! ! أيّها الناس هلمُّوا إليّ ! أنا رسول الله ، أنا محمّد بن عبد الله . قال : فلا شيء ؛ حمَلت الإبل بعضها على بعض ، فانطلق الناس ، إلاّ أنّه قد بقي مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته . وفيمن ثبت معه . . . من أهل بيته عليّ بن أبي طالب (17) .

4 – مسند أبي يعلى عن جابر : كان أيّام هوازن رجل جسيم ، على جمل أحمر ، في يده راية سوداء ، إذا أدرك طعن بها ، وإذا فاته شيء من بين يديه دفعها من خلفه فأبعده . فعمد له عليّ بن أبي طالب ورجل من الأنصار كلاهما يريده – قال : – فضربه عليّ على عرقوبي الجمل ، فوقع على عجزه ، – قال : – وضرب الأنصاري ساقه – قال : – فطرح قدمه بنصف ساقه ، فوقع ، واقتتل الناس (18) .

5 – الإرشاد : أقبل رجل من هوازن على جمل له أحمر ، بيده راية سوداء في رأس رمح طويل أمام القوم ، إذا أدرك ظفراً من المسلمين أكبّ عليهم ، وإذا فاته الناس رفعه لمن وراءه من المشركين فاتّبعوه ، وهو يرتجز ويقول :

أنا أبو جرول لا بَراحُ (19) * حتى نُبيحَ القومَ أو نُباحُ فصمد له أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فضرب عجز بعيره فصرعه ، ثمّ ضربه فقطره ، ثمّ قال :

قد عَلم القومُ لدَى الصباحِ * أنّيَ في الهيجاء ذو نصاحِ

فكانت هزيمة المشركين بقتل أبي جرول لعنه الله (20) .

6 – الإرشاد : لمّا قتل أمير المؤمنين (عليه السلام) أبا جرول وخُذل القوم لقتله ، وضع المسلمون سيوفهم فيهم ، وأمير المؤمنين (عليه السلام) يقدمهم حتى قتل أربعين رجلاً من القوم ، ثمّ كانت الهزيمة والأسر حينئذ (21) .

7 – مسند أبي يعلى عن أنس : كان عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) يومئذ [أي يوم حنين] أشدّ الناس قتالاً

بين يديه [(صلى الله عليه وآله)] (22) .

8 – الإمام الصادق (عليه السلام) : قتل عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) بيده يوم حنين أربعين (23) .

9 – الإرشاد – في ذكر وقايع بعد غزوة حنين – ثمّ سار بنفسه إلى الطائف فحاصرهم أيّاماً . . . – : ثمّ خرج من حصن الطائف نافع بن غيلان بن معتب في خيل من ثقيف ، فلقيه أمير المؤمنين (عليه السلام) ببطن وَجٍّ (24) فقتله ، وانهزم المشركون ، ولحق القوم الرعب ، فنزل منهم جماعة إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله) فأسلموا . وكان حصار النبيّ (صلى الله عليه وآله) الطائفَ بضعة عشر يوماً (25) .

---

(1) السيرة النبويّة لابن هشام : 4 / 80 ، الطبقات الكبرى : 2 / 149 ، تاريخ الطبري : 3 / 70 ، الكامل في التاريخ : 1 / 624 .

(2) الطبقات الكبرى : 2 / 150 ، السيرة النبويّة لابن هشام : 4 / 83 وص 87 ، الكامل في التاريخ : 1 / 625 ، تاريخ الطبري : 3 / 73 ، تاريخ الإسلام للذهبي : 2 / 574 ؛ تاريخ اليعقوبي : 2 / 62 ، الإرشاد : 1 / 140 .

(3) الطبقات الكبرى : 2 / 151 ، تاريخ الطبري : 3 / 74 ، السيرة النبويّة لابن هشام : 4 / 85 ، الكامل في التاريخ : 1 / 625 .

(4) تاريخ الطبري : 3 / 74 ، الكامل في التاريخ : 1 / 626 ، تاريخ الإسلام للذهبي : 2 / 576 .

(5) الطبقات الكبرى : 2 / 151 ، تاريخ الطبري : 3 / 74 ، السيرة النبويّة لابن هشام : 4 / 85 ، الكامل في التاريخ : 1 / 625 .

(6) تاريخ الطبري : 3 / 75 ، الطبقات الكبرى : 2 / 151 ، السيرة النبويّة لابن هشام : 4 / 87 ؛ الإرشاد : 1 / 142 .

(7) الكافي : 8 / 376 / 566 ، الإرشاد : 1 / 144 وص 150 .

(8) الإرشاد : 1 / 143 وص 150 وراجع مسند أبي يعلى : 2 / 344 / 1858 وتاريخ الطبري : 3 / 76 والسيرة النبويّة لابن هشام : 4 / 88 .

(9) الإرشاد : 1 / 153 .

(10) الإرشاد : 1 / 152 ، تاريخ اليعقوبي : 2 / 64 .

(11) الإرشاد : 1 / 149 .

(12) التوبة : 25 و 26 .

(13) تاريخ اليعقوبي : 2 / 62 ، الإرشاد : 1 / 140 نحوه .

(14) تاريخ الإسلام للذهبي : 2 / 574 وراجع المغازي : 3 / 890 .

(15) أجوف : واسع الجوف والحَطُوط : الأكمة الصعبة الانحدار (لسان العرب : 9 / 35 و ج 7 / 274) .

(16) عَماية الصبح : بقيّة ظلمة الليل (لسان العرب : 15 / 98) .

(17) السيرة النبويّة لابن هشام : 4 / 85 ، تاريخ الطبري : 3 / 74 .

(18) مسند أبي يعلى : 2 / 344 / 1858 ، تاريخ الطبري : 3 / 76 ، السيرة النبويّة لابن هشام : 4 / 88 كلاهما نحوه .

(19) البراح : الظهور والبيان (لسان العرب : 2 / 409) .

(20) الإرشاد : 1 / 142 ، كشف الغمّة : 1 / 222 .

(21) الإرشاد : 1 / 144 ، كشف الغمّة : 1 / 223 ، إعلام الورى : 1 / 387 ، كشف اليقين : 175 نحوه .

(22) مسند أبي يعلى : 3 / 443 / 3594 ، المعجم الأوسط : 3 / 148 / 2758 وفيه " مِن أشدّ " بدل " أشدّ " .

(23) الكافي : 8 / 376 / 566 عن عجلان ، كشف الغمّة : 2 / 83 من دون إسناد إلى معصوم .

(24) وَجٌّ : الطائف (معجم البلدان : 5 / 361) .

(25) الإرشاد : 1 / 153 ، المناقب لابن شهر آشوب : 3 / 145 ، إعلام الورى : 1 / 233 وليس فيهما من " ولحق القوم . . . " .